مرض الضحك

هو من ألطف الامراض التي ظهرت بعد الحرب العظمى يعتري المصاب به ضحك متواصل ينتهي بموته وقد نشرت الجرائد خبر ظهوره في سنة ١٩٢١ فقال في ذلك

نظرتُ الى الناس مستطلعاً ... فلم أر فيهم من يضحكُ
فقلت أيا قوم ماذا جرى ... وماذا البكاء الذي يضنك
فان الزمان غدا ضاحكاً ... وهذا سبيل الهنا فاسلكوا
فقالوا ومن أنت بين الورى ... فقلت أنا المرض المضحك

القاهرة نقولا بدران

من مذكرات ابن علي بك (١)

رواية هذا العدد

ما كدت أنزل عن منبر الخطابة بعد القائي محاضرة طويلة حتى دنت مني

(١) عرّفنا ابن علي بك في غير هذا المكان فراجعه

سيدة شاحبة اللون مضطربة وقالت بصوت مهدج : انت . . . فقط أنت . . . اكراماً لله . . . وكل شيء مقدس . . . وباسم العلم . . . سر معي إلى منزلي . . .

وبعد عدة دقائق كانت السيارة تنهب بنا الأرض نهباً .

وفي أثناء الطريق استطاعت السيدة ان تخبرني بأنها تسعى لانقاذ ابنها المجنون الذي طوحت به الأقدار على أثر حدوث الثورة الكبرى في روسيا إلى سيبيريا ومنها طاف أنحاء منغوليا ووصل إلى مدينة أورغا حيث عثرت عليه والدته بعد البحث الطويل .

وفي خلال أسفاره الشاقة التي تحمل فيها صنوف الهوان والآلام والجوع والعطش والشقاء تغيرت هيئته ونحل جسمه وفقد صوابه بل فقد عقله . وهو يقضي الليل والنهار في ذهول عميق وأحيانا تشتد عليه النوبات العصبية فيقبض على كل شيء يصادفه أمامه ويحذفه على الحائط ثم يرفع صوته بالبكاء والنحيب ويقول وهو في حالة الذهول :

« أيها الصنم الملعون ! خذ ذهبك ! »

وقد استشارت والدته التعسة أشهر أطباء الأمراض العصبية وأطباء الأمراض الروحية فوصف لابنها كل واحد دواء ولكنه لم تفده الحمامات الباردة ولا الحارة ولا الرياضة في الهواء الطلق ولا العلاجات الكهربائية ولا . . . ولا . . . وان السيدة لما سمعت محاضرتي حكمت بأني استطيع شفاء ابنها

وصلنا منزلها وقال الخادم الذي فتح لنا الباب ان الشاب هادىء . وكان جالساً على كرسي واسع بحالة الانحطاط والضعف وعمره لا يتجاوز الخمس والعشرين سنة . وفيما كنت أتأمله من بعيد صرخ فجأة صوتاً اهتزت له أركان الغرفة وقال : أيها الصنم الملعون ! خذ ذهبك !

فهرولت السيدة وتبعها الخادم إلى الغرفة وتناول الشاب كرسياً وضرب به الحائط فتكسر قطعاً . واذ ذاك تقدمت إلى العمل . واذ كان واقفاً وظهره نحو الباب لم يلحظ دخولنا عليه فسرت نحو بهدوء وأدنيت من أذنه قضيباً من النحاس وطرقت عليه بقوة بمطرقة حتى طنت أذناي من شدة الصوت وأثر ذلك على

المريض تأثيراً شديداً فارتخت يداه والتوى جسمه وسقط على يدي الخادم الممدودتين. فحدجت نظري به وبعد ردح من الزمان نومته تنويماً مغنطيسياً نام على أثره نوماً عميقاً. فقلت لأمه انه سيلبث هادئاً ساكناً وسأعود غداً حيث استطيع تنويمه بسرعة وعدت إلى منزلي تعباً متوتر الأعصاب من شدة ما قاسيته في خلال تنويمه.

وكان الشاب جالساً على كرسي عميق وعمره ٢٥ سنة

٢

واظبت على زيارة المريض أياماً متوالية وكنت يوماً عن يوم أزيد في تعميق نومه مغنطيسياً وفي خلال نومه كان يتكلم ويجيب على الأسئلة التي القيها عليه فتمكنت بواسطة ذلك من الوقوف على أسباب مرضه ووصوله إلى هذه الحالة واليك البيان:

∴

بعد أن ترك فرقته في خلال الحرب العظمى طاف الشاب اسكندر أنحاء منغوليا وحيداً طريداً متحملا الأتعاب الشاقة وأخيراً وصل إلى أورغا منهوك القوى يكاد الجوع يودي به فوجد فيها بطريق المصادفة زميلا له في المدرسة يدعى فلاديمير من طلبة جامعة اللغات الشرقية جاء إلى منغوليا لدرس لغتها والتمرن على كلامها فآوى هذا اسكندر وأطعمه ثم قدمه إلى أصدقائه وحاول ايجاد عمل له فلم يفلح وذات يوم بينما كانا منفردين في المنزل قال فلاديمير لرفيقه:

اصغ يا اسكندر لما أقول: هل تريد أن تصبح غنياً كبيراً تنفق الأموال عن سعة فيما يجلب الانشراح لنفسك

— وكيف . . . . وبأي طريقه ؟

— أعرني سمعك . . . اني منذ مدة كنت أبحث عن صديق أثق به لأطلعه على سر لا يعرفه غيري والآن أرسلك الله لي . نحن صديقان قديمان وأرجح انه لا يقدم أحدنا على خيانة الآخر ! نحن نستطيع بعد عدة ساعات احراز ثروة طائلة دون أن نعرض نفسينا للخطر . فاسمع جلية الأمر .

بجانب أورغا واقع دير بوذي يسمى خاندالج . . . وقد تعارفت مع رهبانه ولاماته

وبعد مرور الأيام توثقت عرى الصداقة بيني وبين أحدهم وقد روى لي هذا ما يأتي :

في الجهة الغربية من هنا على شاطيء نهر سيلينغا تمتد سلسلة جبال خينكان الكثيرة الكهوف وفي أحدى المغاور المحفورة بأيد بشرية يوجد الصنم المنغولي أو الاله الأكبر لجميع هذه الجهات الذي يسمونه خير — لك — خان وفي كل عام يحضر إلى المغارة المذكورة الشامان (الكاهن الاكبر) الذي يعرف وحده فقط طريق مدخلها ويودع فيها النذور التي يقدمها السكان كفارة عن ذنوبهم . ثم ان اللاما صديقي تتبع مرة خطوات الشامان وعرف المغارة ووصفها لي وصفاً مسهباً ثم أخرج من جيبه خريطة مرسوماً عليها موقع المغارة وأطلعه عليها وقال : وفي تلك المغارة اكوام مكدسة من الذهب والفضة وماذا يضيع خير — لك — خان الصنم الأكبر اذا أخذنا جزءاً من الذهب الملقى تحت أقدامه . اني لم أقدم على الذهاب وحدي إلى المغارة لأن الوصول اليها عسر المنال ويجب ان يكون معي رفيق أمين نتعاون معاً على تحمل اعباء السفر ودخول المغارة فأرسلك الله ويجب أن نباشر هذا العمل بسرعة وحزم

وبعد تردد طويل وافقه اسكندر على رأيه وبعد عدة أيام ركبا جوادين قويين وتزودا بما يلزمهما من الطعام والأكياس والمصابيح والمسدسات والحبال وبما جهة المغارة

٣

وفي مساء اليوم التالي وصلا سفح سلسلة جبال خينكان فتوجلا وربطا الجوادين وسارا مشياً على الأقدام بين الحزون والصخور النائئة وبعد مشقة وأهوال قال فلاديمير : هذه الصخرة التي تشبه الانسان انتائمة كحارس للمغارة المنشودة . وكانت الطريق تشتد وعورة وصعوبة لأنها تسير بين منحنيات صخرية ضيقة حتى قال اسكندر ان الشيطان مع خفته لا يستطيع السير في هذا الطريق وأخيراً وصلا إلى المغارة وبعد مداولة قررا أن ينزل اسكندر إلى المغارة لأن فلاديمير أقوى منه في شد الحبل وقال له هذا : انظر الخريطة مرة أخرى حتى لا تضل وتقع في الخطأ عند وصولك إلى اسفلها تدور دورة إلى اليمين فتصل بسهولة إلى الكنوز ثم شد الحبل بمنطقته شداً وثيقاً والف ظهره بكيس كبير ونزل باحتراس وكان فلاديمير يرخي الحبل بتؤدة وتأن عقدة فعقدة وشبراً فشبراً إلى أن شعر ان الحبل ارتخى فعلم ان صاحبه وصل إلى أسفل المغارة العميقة . اما اسكندر فلما وطئت قدماه أرض المغارة وقف هنيهة يستريح ثم أنار المصباح وقبض على مسدسه وسار باحتراس وحذر وسط ظلام دامس في مدخل ضيق كثير التعاريج ولما تحوّل الى اليمين ظن انه وصل إلى الكنوز لكنه رأى وسط ذلك الظلام عدة درجات توصل إلى قعر سحيق فسار عليها باحتراس مستنداً على الحائط وما زال سائراً نزولا حتى أحدقت به أخيراً ظلمة دامسة ووقعت أشعة المصباح على اكوام من الحجارة ثم شعر الشاب برطوبة شديدة وان الأرض لزجة وما زال نازلا تارة الى الشمال وطول إلى اليمين وأخيراً ضاقت الطريق فاضطر أن يحبو على يديه ورجليه وقد نشفت حنجرته من شدة الاضطراب والوجل ومن فساد الهواء وشعر بدوار في رأسه وطنين في أذنيه وظهرت أمام عينيه دوائر خضراء وحمراء ثم وقع نور المصباح على شيء لامع متلألىء ورأى اسكندر أمامه أكواماً من الذهب والفضة والحجارة الكريمة كما رأى الصنم الاكبر منتصباً محاطاً بأصنام كثيرة صغيرة فوقف برهة وقال هذا صنم خيبر — لك — خان محاطاً بحاشيته وجعل يتأمله ولكنه قال يجب مباشرة العمل فان فلاديمير ينتظرني ورأى ان عيني الصنم

تلمعان تحت تأثير نور المصباح ورأى كأن أسنان الأصنام الصغيرة تصر من الغضب وقال أنها منصوبة لحراسة هذه الكنوز . . .

ورأى على أرض الغرفة اكواماً غير مرتبة من الذهب والفضة والنقود المختلفة والسبائك والعقود الثمينة . فتناول الكيس بسرعة ولكنه شعر بأن يديه لا تطيعانه وان اصابعه جمدت وغدت اذناه تطنان طنيناً شديداً . وصدغاه يخفقان فجعل يفرك يديه وأصابعه وأخيراً تمكن من وضع الكيس على الأرض وركع إلى جانبه وجعل يملأه بالذهب والأساور والأقراط . ثم لحظ انه راكع أمام الصنم فأدار اليه ظهره ولكنه شعر بأنه عديم الحركة . كما شعر بنشوة في حلقه ورطوبة تحيط به وان قواه آخذة في الانحطاط ومع هذا كان يغرف الذهب ويضعه في الكيس حتى ملأه إلى نصفه وقال يكفي هذا ويجب أن أعود بسرعة ثم نهض متثاقلا ولكنه عثر واضطرب وسقط على الأرض ووقعت أشعة المصباح على الصنم فرأى عينيه اللؤلؤيتين تلمعان لمعاناً شديداً . . .

فقال وفوق هذا فان هذا الخان الملعون يضحك أيضاً وسأريه الآن وجمع قواه وقفز ناهضاً وتناول قبضة من النقود وحذفها على وجه الصنم وسمع بعد ذلك رنيناً شديداً ثم سمع صوتاً خفيفاً يقول : لص — لص . وقال الصنم الاكبر — لص — لص . وكررت جميع الأصنام هذه اللفظة

فوقع خوف عظيم على الشاب وقال : يجب ان أحمل الكيس وأخرج من هذا المكان المخيف .

وجمع كل قواه وحمل الكيس على كتفيه وفي اثناء هذا وقع المصباح من يده وانطفأ . فصاح الشاب وقال كيف أستطيع الخروج من هذا الظلام الحالك .

فأبهظ الكيس كاهله فقال : يجب أن أخففه بالاستغناء عن بعض مافيه فرمى سواراً رنّ على الأرض وخرج منه صوت يقول لص . ورمى قرطا كبيراً رنّ وصاح لص . وسقطت سبيكة من الذهب رنت رنيناً عالياً وقالت لص .

لص — لص — لص — لص . تجاوبت هذه اللفظة في فضاء المدفن وتصاعدت من الأشياء التي كان يلقيها من الكيس

وقال : ماهذا ؟ لقد كان هنا باب فاذا مكانه صنم وهنا أصنام عديدة معونة ان حملي ثقيل يجب تخفيفه فألقى منه أشياء عديدة كانت ترن قائلة : لص ! لص ! لص ! فصرخ اسكندر قائلا : أنتم اللصوص وسأريكم الآن وأخذ مسدسه وأطلق منه عدة طلقات أخطأت المرمى ووقعت على الصخور . واذا بالصنم يصرخ في وجه الشاب قائلا : الويل لك ! ثم دنا منه . وصرخ بقية الأصنام قائلين وهم يصرون بأسنانهم : أرجع الذهب . . . فأجابهم اسكندر باطلاق الطلقات المتوالية من مسدسه وكلما كانت تقع على الصخور بلا جدوى وجعل يصرخ : أين المخرج أين الطريق وجعل الصنم يصرخ بدوره : أرشقوا اللص . أوثقوا اللص .

فترددت أصوات عديدة قائلة سنوثقه . . . سنربطه . . . وما عتموا حتى ألقوا حبلا حول رجليه فجمد جسمه من الخوف ووقف شعر رأسه وشعر بأن جسمه أصيب بقشعريرة شديدة . وكان الذهب يتصارخ تحت رجليه قائلا : اللص . . . اللص . . . اللص . وكرر الصنم قوله : أوثقوا اللص . أربطوه فردوا عليه بصوت واحد قائلين : سمعاً وطاعة! سنربطه

وصاحوا : هات الذهب . وشعر ان الحبل اشتد

حول رجليه وان أسنان أحد الأصنام نشبت في يده وان يداً تشبثت بالكيس

فقال الشاب : أيها الصنم الملعون خذ ذهبك وتماص منهم وجمع قواه وقذف بنفسه الى الأمام وخرج من المغارة

ولما شعر فلاديمير من فوق باضطراب الجبل تنهد الصعداء وقال الحمد لله لقد قضينا أربنا وأدركنا غرضنا . ولكنه لما سمع طلقات المسدس التي كان يطلقها اسكندر قال لقد وقعت معركة بينه و بين الأصنام حراس الكنز فقبض على مسدسه ولكنه رأى اسكندر عند فوهة المغارة المظلمة فلما وقع نظره عليه قال يا الهي ماهذا ؟ ولم يسمع من زميله غير قوله : أيها الصنم الملعون ! خذ ذهبك . ولم يستطع أن يفهم منه شيئا فعاد به الى أورغا وهو لا يعي على شيء بل عاد به مريضا بنفسه وعقله

. . .

قال المحدث ولما وقفت على هذه المعلومات لم يصعب علي بواسطة تأثير التنويم المغنطيسي ازالة تلك الأوهام والتخيلات التي رسخت في نفسه ورسمت في أفكاره . وبعد شهرين مضت على مقابلتي له تمكنت من ارجاع عقله وشعوره فتركته سليما معافى

اذا ما كنتَ في قوم غريباً فعاملهم بفعل يُستطابُ
ولا تحزن اذا فاهو بفحش غريب الدار تنبحه الكلاب

عاشر من الناس من تبقى مودته فأكثر الناس جمع غير مؤتلف
منهم صديق بلا قاف ومعرفة بغير فاء واخوان بلا ألفِ

أي شيء يكون أقبح مرأى من صديق يكون ذا وجهين
من ورائي يكون مثل عدوي واذا يلقني يقبّل عيني